فقه اللغة العربية

للأستاذ عبد الله إبراهيم

ورد ذكر هذا العلم (فقه اللغة) في المادة الثالثة من المرسوم الصادر في ١٤ من شعبان سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٣٢ م بانشاء مجمع اللغة العربية الملكي الذي سمي بعد ذلك مجمع فؤاد الأول للغة العربية : ونص هذه المادة هو : —

مادة ٣ — يصدر المجمع مجلة تنشر فيها تنشر أبحاثه التاريخية وقوائم الألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها وتتقبل مناقشات الجمهور واقتراحاته . وتنشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المجمع (ودراسات فقه اللغة).

وورد ذكره كذلك في المادة الرابعة من لائحة المجمع الداخلية التي وضعها في دور انعقاده الأول ونص هذه المادة هو : —

مادة ٤ — يصدر المجمع مجلة لنشر ما يقره من البحوث اللغوية ونتائجها والألفاظ والتراكيب التي يرى استعمالها أو تجنبها وتؤلف لجنة من الأعضاء العاملين لتحرير المجلة يرأسها كاتب السر وتنشر المجلة إلى جانب ما سبق النصوص القديمة (ودراسات في فقه اللغة).

وقد أخذ بعض المعاهد العلمية في البلاد المصرية يعنى بدراسة هذا العلم والكتابة فيه ولم أجد فيما كتب فيه قديماً وحديثاً تعريفاً ومنهاجاً له يطمئن لها قلبي فامتلأت رغبة جامحة في أن أضع له تعريفاً واضحاً محدوداً ومنهاجاً ملائماً لهذا التعريف — ولئلا أتورط في الخطأ وأنا في صدد وضع تعريف ومنهاج لعلم لم يعرفه أحد من السلف ولا من الخلف ولم يضعوا له منهاجاً : وهو خطأ إن وقع جسيم جداً : عمدت إلى دراسة البحوث التي

حررها حضرات المحدثين الباحثين المصريين في هذا العلم وقد آثرت بحوث هؤلاء لما يأتي : —

١ — لأن فيها كتابين يسمى كل منهما : فقه اللغة : وهو العلم المقصود بمقالي هذا ولا أعرف في كتب المتقدمين بهذا الاسم إلا كتاب فقه اللغة للثعالبي وكتاب الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس .

٢ — ولأن في كتاب هذه البحوث أساتذة تلقوا علوم اللغة كلها على أحدث الطرق وأسدها وأفادوها عن أساتذة اللغات الغربيين الذين تناولوا لغات البشر كلها درساً وتمحيصاً وتحقيقاً ووضعوا لها أصولاً وضوابط على قواعد علمية متينة وبلغوا في ذلك أرفع منزلة

٣ — ولأن حضرات هؤلاء الأساتذة المصريين من أخذ منهم من علماء الغرب مباشرة ومن أخذ منهم ممن أخذ عن الغرب قد بذلوا كل ما يملكون من ثقافة وتفكير عميق وجدّ في تحرير هذه البحوث وجعلها ملائمة للمعنى الذي أرادوه من فقه اللغة .

٤ — ولأن ما كتبوه لما يجف مداده لحداثته وكل حديث يطبعه أثير .

والذي تيسر لي من هذه البحوث مطبوعاً خمسة كتب كلها جيد وفي مقدمتها جودة وتحقيقاً وسعة وشمولاً ، ثلاثة كتب لحضرة الأستاذ الجليل دكتور علي عبد الواحد وافي وكيل كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وهي : علم اللغة ، وفقه اللغة ، واللغة والمجتمع .

وكتاب لحضرة الأستاذ الجليل دكتور ابراهيم أنيس الأستاذ في كلية دار العلوم في علم الصوت ، وكتاب لحضرة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الرفزاق الأستاذ في كلية دار العلوم في فقه اللغة . كان قد ألقى بحوثه على طلبة كلية اللغة العربية في الجامعة الأزهرية حين كان أستاذاً له فيها .

وأردت من دراسة هذه الكتب أن أعرف مدى إلمامها بفقه اللغة المقصود بهذا المقال وأن أجد فيها تعريفاً له ومنهاجاً .

وإذ كان الموضوع أجلّ من أن اضطلع به وحدي أو تستقل به طائفة دون أخرى فأني أعرض في هذا المقال على حضرات أساتذة فقه اللغة المذكورين وحضرات أساتذة اللغة العربية في جميع مراحل التعليم وعلى عشاق اللغة وعشّاقها هذه الدراسة فأقول : —

جعل حضرة الأستاذ الجليل دكتور علي عبد الواحد وافي كتابه الأول عن اللغة تسعة أقسام وهي تمهيد وثمانية فصول وذكر في التمهيد أحدث الآراء وأسدّها وناقشها في البحوث اللغوية وما يدخل منها تحت علم اللغة قال : — ترجع أهم البحوث اللغوية الى الموضوعات التالية : —

١ — أصل اللغة أو نشأة اللغة ويبحث في الأشكال الأولى التي ظهر فيها التعبير والأطوار التي اجتازها حتى وصل الى مرحلة الأصوات ذوات الدلالات الوضعية والطرق التي سلكها الانسان والمثل التي احتذاها في وضع الكلمات وفي تعيين مدلولاتها وما إلى ذلك .

٢ — حياة اللغة : ويبحث فيها يعتري اللغة من غِنىً وفقر وقوّة وضعف وسعة وضيق ونصر وهزيمة في مصارعتها غيرها من اللغات وما يتلوه من انتشار أو انكماش وفي انقسام اللغة الى لهجات واللهجات الى لغات عامية وفيما يؤول إليه أمرها من شيخوخة ففناء كلي أو جزئي .

ومن أعظم فروع هذا العلم انقسام اللغة الى لهجات واللهجات الى لغات عامية .

٣ — وعلم الصوت ويبحث في الأصوات التي تتألف منها اللغة وفي أقسامها وفصائلها وخواصّ كل قسم ومخارجه وطريقة إحساس السامع واختلاف النطق بالحروف واختلاف الأصوات التي تتألف منها الكلمة في لغة ما باختلاف عصورها والأمم الناطقة بها وما يتعلّق بذلك من عوامل ونتائج وقوانين لغويّة .

٤ — وعلم الدلالة : ويبحث في اللغة من ناحية أنها أداة للتعبير عمّا يجول بالخاطر

٥ — علم أصول الكلمات . وهو يبحث لكل كلمة في اللغة عن الأصل الأول الذي انحدرت منه في لغتها أو في اللغات التي من فصيلتها كالبحث لكلمة ذهب العربية عن الأصل الذي انحدرت منه اللغة العربية نفسها وفي اللغات التي من فصيلتها كالأكديّة والسريانية والعبرية ، ومن أعظم فروعه أعلام الأماكن والمواضع والبلاد والأنهار ونحوها .

وبين هذا العلم وبين علمي الصوت والدلالة افتراق وتلاق فهما يفارقانه في أنهما يدرسان أموراً كلية لكشف القوانين العامة وهو يدرس كلمات مفردة وهي أمور جزئية

للوصول الى أصولها الأول ولا شأن له في الوصول الى قوانين عامة وبلاقيانه في أن معرفة أصول الكلمات يساعد كثيراً على معرفة نشوء الأصوات والدلالات وارتقائها وعلى كشف قوانينها، في أن معرفة قوانين الصوت والدلالة تساعد كثيراً على معرفة أصول الكلمات فكل منهما عون للآخر على الوصول الى أغراضه

٦ — وعلم الاجتماع اللغوي : ويبحث في العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية وأثر المجتمع بمدنيته ونظمه وتاريخه وتكوينه وبيئته الجغرافية في مختلف الظواهر اللغوية

وإلى هذا العلم تحتاج العلوم السابقة (١) فنشأة كل لغة وارتقاؤها حتى تصل الى مرحلة الأصوات ذوات الدلالة الوضعية و(٢) حياتها وما يعتريها من غنى وفقر وقوة وضعف وانقسام الى لهجات ثم الى لغات عامية الخ . و (٣) نشوء أصواتها وارتقاؤها و(٤) تنوع دلالتها و (٥) معرفة أصولها . كل أولئك يرجع أعظم عوامله الى ظواهر اجتماعية :

٧ — وعلم النفس اللغوي : ويبحث في العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر النفسية على اختلاف أنواعها من تفكير وخيال وتذكر ووجدان ونزوع وغيرها ويبين أثر كل طائفة منها في الأخرى ويشرح ما تؤديه اللغة من وظائف متعددة في أدائها على ظواهر نفسية كالايحاء والتأثير وتعرض لما يستعد عليه كسب الطفل للغة من قوى نفسية وعلم جرا . وموضوعات هذا العلم تمتزج بموضوعات ما قبله .

ومن علم الصوت وعلم الدلالة يتألف أعظم فروع اللغة وأدقها وأكثرها نضجاً وينتظم علم الدلالة بحوثاً كثيرة استقل الآن كل منها عما عداه وأصبح موضوع شعبة دراسية قائمة بذاتها وأعظمها : —

ا — علم المفردات — ب — علم البنية — ج — علم التنظيم — د — علم الأساليب وكل علم من العلوم الثلاثة الأخيرة ثلاثة أقسام تعليمي وتاريخي ومقارن

ب — فعلم البنية التعليمي هو الذي يدرس القواعد المتصلة باشتقاق الكلمات وتصريفها وتغير أبنيتها بتغير المعنى وما يتصل بذلك في لغة ما لمجرد جمعها وتنسيقها ليسهل تعلمها وتعليمها وسرعتها في الحديث والكتابة — ومن هذا النوع علم الاشتقاق وعلم الصرف

وعلم البنية التاريخي هو الذي يدرس هذه القواعد في لغة ما دراسة تاريخية تحليلية
وعلم البنية المقارن هو الذي يدرس هذه القواعد دراسة تاريخية تحليلية مقارنة في قصيلة من اللغات الانسانية أو فيها جميعاً

ح — وعلم التنظيم التعليمي : هو الذي يدرس تقسيم الكلمة الى اسم وفعل وحرف وأنواع كل قسم ووظيفته في الدلالة وأجزاء الجملة وترتيبها وأثر كل جزء منها في الآخر وتأنيث الكلمة وتذكيرها وجمعها وتثنيتها تبعاً لحالة كلمة أخرى في الجملة وعلاقة أجزاء الجملة بعضها ببعض وطريقة ربطها وتقسيم العبارة الى جمل وترتيب هذه الجمل وطريقة وصلها أو فصلها وما يتصل بذلك يدرس ذلك في لغة ما لمجرد جمعها وتنسيقها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها في الحديث والكتابة . ومن هذا النوع بعض أبواب النحو والمعاني في اللغة العربية

وعلم التنظيم التاريخي : هو الذي يدرس هذه القواعد في لغة ما دراسة تاريخية تحليلية
وعلم التنظيم المقارن هو الذي يدرس هذه القواعد دراسة تاريخية تحليلية مقارنة في فصيلة من اللغات الانسانية أو فيها جميعاً

ط — وعلم الأساليب التعليمي : هو الذي يدرس الأساليب اللغوية واختلافها باختلاف فنونها من شعر ونثر وخطابة ومحادثة وكتابة وتمثيل وغيرها باختلاف العصور والأمم الناطقة بها والطرق التي تسلكها الأساليب في تطورها والقوانين الخاضعة لها وما يتصل بذلك . تدرس ذلك في لغة ما لمجرد جمعها وترتيبها ليسهل تعلمها وتعليمها واحتذاؤها في الحديث والكتابة . ومن هذا النوع بعض أبواب المعاني والبيان والبديع في اللغة العربية

وعلم الأساليب التاريخي : هو الذي يدرس الأساليب في لغة ما دراسة تاريخية تحليلية
وعلم الأساليب المقارن هو الذي يدرس الأساليب في عدة لغات دراسة تاريخية تحليلية مقارنة

فعلوم الدلالة عشرة علم المفردات ثم علوم البنية والتنظيم والأساليب وهي ثلاثة وكل منها ثلاثة تعليمي وتاريخي ومقارن فتكون تسعة والمجموع عشرة

وعلوم البنية والتنظيم والأساليب التعليمية الثلاثة التي يقابلها في اللغة العربية علوم

الاشتقاق والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع ليست من علوم اللغة لأنها من بحوث القواعد التعليمية

* * *

هذا معنى ما قاله حضرة الأستاذ العلامة الجليل مؤلف الكتاب ذكرته بإيجاز وبشيء من التقديم والتأخير والتصرف مع المحافظة الدقيقة التامة على المعنى . وقد ختم الكتاب بما يدل على أن اسم : علم اللغة : شامل لجميع بحوثه وكل بحث في اللغة ما عدا بحوث القواعد التعليمية

وأقول إذا كان من علوم البلية والتنظيم والأساليب التعليمية علوم الاشتقاق والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع في اللغة العربية فأني أستطيع أن أقول : إن بقية علوم اللغة العربية من وضع وتجويد وعروض وقافية ورسم حروف من القواعد التعليمية كأخواتها وليست (على هذا التقسيم الغربي الحديث) من علم اللغة ، أما علم القراءات العربي فهو كسلم المفردات من علم اللغة العربية .

* * *

وقد لخصت التمهيد هذا التلخيص لأقول : إن كل البحوث التي تدور حول (١) نشأة اللغة أو أصلها و (٢) حياتها و (٣) أسرارها و (٤) دلالاتها و (٥) علم الاجتماع اللغوي و (٦) علم النفس اللغوي ليست من فقه اللغة بالمعنى الذي أريده وسيأتي بيانه وإنما هي من علم اللغة بمعناه العام الذي بينه حضرة العلامة المؤلف الفاضل ما عدا البحث الخامس منها الذي له عندي كل التقدير .

أما فصول الكتاب الثمانية وهي : —

١ — الفصل الأول : نشأة اللغة الانسانية وتطورها — ٢ — الفصل الثاني : لغة الطفل ومراحلها ومبلغ تمثيلها لنشأة اللغة الانسانية وتطورها — وهذان الفصلان في نشأة اللغة أو أصل اللغة — ٣ — الفصل الثالث : فضائل اللغات وخواص كل فصيلة منها وما بينها من صلات — ٤ — الفصل الرابع : صراع اللغات — ٥ — الفصل الخامس تفرّع اللغة الواحدة الى لهجات ولغات — ٦ — الفصل السادس : تطور اللغة وارتقاؤها. وهذه الفصول الأربعة في حياة اللغة .

٧ — والفصل السابع : أصوات اللغة . حياتها وتطورها — وهذا الفصل في علم الصوت — ٨ — الفصل الثامن في علم الدلالة — وهذا من علم الدلالة كما هو واضح : فليست هي الأخرى من فقه اللغة بالمعنى الذي أريده وإنما هي من علم اللغة بمعناه العام الذي أراده حضرة العلامة المؤلف الفاضل .

أما الكتاب الثاني لحضرة الأستاذ العلامة المؤلف المسمى : فقه اللغة فيشتمل على بحوث في اللغات السامية وبخاصة اللغة العربية ويتضح أنه قد درس هذه البحوث الخاصة على ضوء الحقائق العامة التي كشف عنها في كتابه الأول . وموضوعات الكتاب الثاني :

فقه اللغة : هي كما وضعها حضرته وكتبها

(١) الموضوع الأول : حياة اللغة : ويدخل في ذلك نشأتها ، وصراع لهجاتها بعضها مع بعض وتغلب لغة قريش ، ومجيء القرآن والأدب الجاهلي بلغة قريش ، ونهضة لغة قريش وعوامل هذه النهضة ، وأثر القرآن والحديث والإسلام في اللغة العربية ، واللهجات العربية بعد تغلب لغة قريش ، واحتكاك العربية بأخواتها السامية وغيرها وآثار ذلك وتفرع العربية إلى لهجات عامية ، ولغة الكتابة العربية أو اللغة الفصحى وتطورها وما استقرت عليه في العصر الحاضر ، ومشكلة الازدواج بين العامية والفصحى . وقد عالجنا هذه المسائل في صفحات ١٠٤ — ١٢٨ و ١٤٢ — ١٧١

(٢) الموضوع الثاني : عناصر اللغة العربية : وترجع عناصر أية لغة إلى أمرين : الصوت والدلالة : وتتكون الدلالة من معاني المفردات : وقواعد التنظيم (النحو) وقواعد البنية (الصرف) وقواعد الأسلوب (البلاغة) فينقسم هذا الموضوع إذاً الى المسائل الآتية : —

(١) الصوت : ويدخل في ذلك طبيعة أصوات اللغة العربية ومخارجها وصفاتها وقد عالج هذه المسائل في السطور ١٥ ـ ١٨ من ص ١٢٨ وفي صفحات ١٩١ — ١٩٤

(٢) المفردات ومعانيها ويدخل في ذلك كثرة المفردات العربية ومترادفاتها والدخيل والمولد والمشترك والتضاد والنحت والعلاقة بين أصوات الكلمة ومعانيها وقد عالجنا هذه المسائل في السطور الخمسة الأولى من ص ١٢٩ وفي صفحات ١٣٦ و ١٤٢ و ١٩٤ و ٢٠٢ و ٢١٥

— ٢٢٤ و٢٣٧ — ٢٤٧ (٣) قواعد التنظيم أو النحو : ويدخل في ذلك الكلام على خواص هذه القواعد ووظائفها وعلى الأعراب واختلاف الآراء بصدده — وقد عالجنا هذه المسائل في السطور الأربعة الأخيرة من ص ١٢٨ وفي صفحات ١٢٩ — ١٣٣ (٤) قواعد البنية أو الصرف : ويدخل في ذلك الكلام على خواص هذه القواعد ووظائفها وعلى اختصاص بعض الأوزان العربية بالدلالة على أمور خاصة — وقد عالجنا هذه المسائل في السطور الأربعة الأخيرة من ص ١٢٨ وفي السطور الثمانية الأخيرة من ص ١٢٩ وفي السطرين الأولين من ص ١٣٠ وفي صفحات ٢٠١ — ٢١٥ (٥) قواعد الأسلوب أو البلاغة : ويدخل في ذلك الكلام على المجاز والكناية والنقل واستخدام الجمل في غير أبوابها ، وأساليب اللغة العربية واختلافها باختلاف الموضوعات وتعريب الأساليب — وقد عالجنا هذه المسائل في صفحات ٢٢٥ — ٢٣٦ ، ٢٤٨ — ٢٥٤

(٣) الموضوع الثالث : كفاية اللغة العربية : وقد عالجنا هذا الموضوع في صفحات ٢٧٦ — ٢٨٢

(٤) الموضوع الرابع : صيانة اللغة العربية ورسمها وضبط قواعدها وتخليد آثارها وإشاعة استعمالها : ويدخل في ذلك الرسم العربي وتاريخه ومراحله وعيوبه ووجوه إصلاحه والتأليف في قواعد اللغة العربية وآدابها وفقهها ومتون اللغة العربية ومجمع فؤاد الأول للغة العربية وقد عالجنا هذه المسائل في صفحات ١٧٢ — ١٩١ و ٢٥٤ — ٢٧٦ و ٢٨٢ — ٢٩١

وهذا يدل على أن هذا الكتاب المسمّى (فقه اللغة) ما هو إلا تطبيق للدراسات العامة التي وردت في الكتاب الأول (علم اللغة) على فصيلة خاصة من الفصائل اللغوية، وقد سمّاه هذا الاسم (فقه اللغة) مجاراة للباحثين من العرب الذين أطلقوا هذا الاسم على البحوث الخاصة باللغة العربية فيكون (فقه اللغة) عنده مساوياً (علم اللغة) ملا فرق بينهما ، ويكون الكتاب الثاني امتداداً للكتاب الاول فكلاهما في (علم اللغة) وإن كان المؤلفون العرب قد استخدموا عبارة : فقه اللغة : في البحوث الخاصة باللغة العربية ، ومن هؤلاء الثعالبي في كتابه فقه اللغة ، وابن فارس في كتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها .

(للبحث بقية)